الفصل الثاني

الحملات العسكرية ونتائجها

في أول لقاء، مدينة بلخ الأفغانية القديمة لا تثير الإعجاب. الأقواس المتداعية في وسط المدينة القديم، بضع كتل من المتاجر، البطيخ المكدس في أكشاك البقالة، أكياس الخيش، الفاصوليا الحمراء والفستق الأخضر، واللوز. الهواء يحمل رائحة بول الخيول، والجلود، والكمون، والمر، والسماق، ودخان الحطب. الحمير تتجول في الأنحاء، وتمضغ العشب، ويبدو عليها الكسل. المكان يبدو من زمن آخر، محطة كاسدة على طريق الحرير القديم.

لكن استرخاء المدينة يمكن أن يخدعك، فبلخ ليست بركة راكدة منسية. إنها واحدة من أقدم المدن في العالم، أكثر قدمًا حتى من أثينا وروما والقسطنطينية، أو بغداد. كانت من قبل كبيرة جدًّا، وفي أوقات معينة في تاريخ البشرية كانت الدولة المدينة الأقوى والأغنى في أوراسيا، واحدة من أكثر المدن نفوذًا وتأثيرًا في العالم.

أول من سكن بلخ لأول مرة قبل نحو 4000 سنة هم الهنود- الأوروبيون، أسلاف الفرس. وكانت تعرف في العصور القديمة، باسم Bactra، مركز باكتريا، وهي موطن زرادشت، أول نبي موحد (بحسب اعتقاد المؤلف) بشّر بتصورات أخروية للجنة والنار، وكانت أيضًا موطن روكسانا، عروس الحرب لدى الإسكندر الأكبر. لقد كانت في أحد العصور عاصمة الإمبراطورية البوذية الواسعة، التي تمتد من إيران اليوم إلى الهند،

ولعل أشهر ما عرفت به باكتريا هذه الأيام أشبه بحكاية خرافية عن ذهب باكتريا، الذي لا يقدر بثمن، والذي يقدر عمره بألفي سنة من القطع النقدية القديمة والجواهر الثمينة التي اكتشفها علماء الآثار السوفيت في السبعينيات من القرن الماضي، ثم (فقدت) في فوضى الحرب الأهلية في أفغانستان وحكم طالبان. «في الواقع، القيمون الحكماء أخفوا الذهب في قبو سري وراء جدار وهمي في الطابق السفلي من القصر الرئاسي في كابول، وقد اُستُرِد، بمساعدة القيّمين الدوليين، عام 2003م».

رأيت بلخ أول مرة بعد ظهر يوم حار في يونيه/ حزيران 2001م، عندما كانت طالبان لا تزال في السلطة، ثم اشتغلت بالعمل الإنساني، وكنت واحدًا من عدد قليل من الأمريكيين الذين أعطتهم طالبان تأشيرات دخول، وكنت قد أتيت إليها من كابول بالسيارة، من خلال نقاط تفتيش طالبان وممر سالانغ، ومن ثم إلى قندوز، وتوقفت بضعة أيام في مزار شريف، ومررنا بقرى مهجورة وطرق مُشّطت من المركبات المقصوفة، والدبابات المعطوبة، والشاحنات المدرعة الملتهمة، وبقية العالم بدا نائيًا جدًّا، وكان ذلك قبل انتشار خطوط الهاتف، والهواتف المحمولة، أو الهواتف التي تحمل باليد، وتعمل بالأقمار الاصطناعية، وكانت وسيلة الاتصال بين مكاتبنا هي جهاز لاسلكي مشوش للإرسال والاستقبال، وكانت هناك محطة ثابتة واحدة في كابول لهاتف يعمل بالأقمار الاصطناعية بطبق لاقط يجب تعييره نحو الهدف للقمر الاصطناعي الموجود في مكان ما فوق المحيط الهندي، فحقًّا المرء يحس هنا بالمسافة.

كانت بلخ حارة، ومتربة، وجافة، وعلى مقربة من الخط الأمامي للجبهة المشتعلة بين طالبان والقوات المتحالفة مع أحمد شاه مسعود الذي يقع على مسافة بضع مئات من الأميال إلى الشرق، وما تبقى من طالبان لممارسة الحكم في بلخ هو القليل من المجندين وعدد قليل من صانعي السجاد المميز المرسلون من قندهار، مركز قوة طالبان في أقصى الجنوب، ولم تكن هناك حاجة للمزيد من الجنود، فالمدينة، مثل الكثير من المدن والقرى الأفغانية، التي وضعت تحت نير طالبان كانت تئن مثل بغل

عجوز أعياه التعب، فمسكينة أنتِ يا بلخ! فاسمها يوحي بالفشل، وهي بالفعل كذلك، فحتى تاريخ المدينة، منذ آلاف السنين يروي قصة الهزيمة والضحية، ليس في الحرب فقط، ولكن في كل شكل معروف من العنف المنظم، فقد اُخترِقت المدينة في القرون المختلفة، ومورست التجاوزات بحقها، من سلب، ونهب، وذبح لسكانها، واغتصبوا، وبيعوا عبيدًا، أو أخضعوا من قِبل القادة الجدد، فقد حملت بصمات الغزاة من مختلف أنحاء آسيا، الإسكندر الأكبر، والهون، وإمبراطورية تانغ، وجنكيز خان وفرسانه المغول المهاجمون، وتحملت كل تلك الاعتداءات من مختلف الملوك الإقليميين، ومن الجيش السوفييتي، وطالبان (أعضاؤها، من جنوب قندهار، وينظر لهم في بلخ على أنهم أجانب من قِبل السكان المحليين)، وفي القرن الحادي والعشرين، جيش الولايات المتحدة، كما لو أن بلخ في كثير من المباريات الرائعة في تاريخ العالم، كثيرًا ما لعبت مع الفريق الخاسر أو ما هو أسوأ من ذلك، كانت هي نفسها ساحة اللعبة، التي يجري انتهاكها من اللعبة واللاعبين.

وليس من قبيل المصادفة أن شهدت بلخ الكثير من سفك الدماء، فالمدينة تقع في وسط السهوب الآسيوية، شمالي وسط أفغانستان، وتمتد من سور الصين العظيم على طول الطريق إلى حدود أوروبا، وفي منتصف المسافة بين باريس وشنغهاي، بين روسيا العظمى من الشمال وشبه القارة الهندية الغنية في الجنوب، في قلب المنطقة المأهولة من أوراسيا، أكبر قارة في العالم، وفي وادٍ يُعدُّ عنق زجاجة. الموقع يلفت انتباه الجيوش، سواء التي تستهدف المدينة أو التي تمر بها إلى الأراضي الغنية، وقد وصفتها الصحفية آنا بادخن بأنها «صندوق عظام الموتي الألفي». حيث «يعجن الدم والعظام من اثنتي عشرة حضارة في هذه التربة الرسوبية»[1] هكذا كانت، منذ عهد الإسكندر.

في يونيه/ حزيران 2001م، بلغ الجفاف الشديد ذروته، وتفاقمت آثاره في ظل حكم طالبان البائس، ما دفع بالآلاف من العائلات في شمال أفغانستان، بما في ذلك بلخ إلى الفرار لمعسكرات في باكستان أو إيران، أو إلى الخيام التي نصبت في مدينة مزار

شريف القريبة والمجهزة بالمساجد ومنظمات الإغاثة الإنسانية، فالآبار تجف، وميسورو الحال كانوا يشترون المياه من مناطق في الشمال، وتُشحَن في حاويات من البلاستيك على ظهور الحمير، كان وقتًا سيئًا، وكنت أنا وزملائي قد ذهبنا إلى مزار شريف لمعرفة إن كانت بعض الأسر التي بقيت في حاجة للمساعدة في بلخ. كنا نبحث عن الفقراء فقرًا مدقعًا، أو الهالكين من الضعف، والذين يصعب عليهم التحرك، وقد شاهدنا في جميع أنحاء الشمال بلدات وقرى مهجورة بالكامل، وحيوانات نافقة، وحفر قبور حديثة الحفر في المقابر الصغيرة وقبورًا صغيرة للأطفال الصغار، فكان الأمر كما لو أن البلد كله أصابه الجفاف، وتوقف عن الحياة.

طالبان كانت تتداعى، لم تكن هناك دلائل مباشرة على أن الجماعة كانت تضعف، ولكن كان هناك شعور بأن الوضع الراهن لا يمكن أن يستمر. شاهدنا اليأس في وجوه القوات القتالية لطالبان، على سبيل المثال. كنا قد واجهنا موكبًا كبيرًا منهم في الطريق إلى مزار شريف قبل أسابيع، على طريق قندوز التي تتجه شمالًا نحو خط المواجهة، على امتداد واسع من الوادي شمال ممر سالانغ، نقطة العبور الرئيسة للهندو كوش. أول ما رأيناه هو الغبار المتطاير من القافلة، والعواصف على طول السهل، والجبال العالية عن بعد، ثم جاؤوا إلينا، بدبابات وشاحنات معظمها قديمة.

انزوينا إلى جانب الطريق؛ كي نسمح للقطار الحربي بالمرور. (الطلاب) كما يطلق عليهم زملائي الأفغان، تراكموا في المركبات والدبابات، رعاع بالجلابيب البنية الداكنة وعمائم الحرير السوداء ربطت بجنون على رؤوسهم، منفوخة ببروز، وبذيول طويلة سوداء. كانت القافلة مدججة بالبنادق، والأسلحة التي تضم قذائف صاروخية، ورايات خضراء وبيضاء لجيش الإمارة الإسلامية وحركة طالبان. وكانت عيون المكحلة فارغة. كان أولئك البشتون الجنوبيون الغلاظ، المعادون لمعظم الشعوب شمالي أفغانستان: أوزبكستان والتركمان والهزارة، والطاجيك، والجماعات العرقية الأخرى في أفغانستان،

أقرب إلى البوذية في ماضي البلاد الزرادشتي منهم لجيرانهم الهنود والأوروبيين في الجنوب.

كان هناك قدر كبير من سفك الدماء، عندما استولت طالبان على بلخ ومزار شريف عام 1997م، وكانت قلة من أمراء الحرب الأوزبكيين المرتدين قد مكّنت قوات طالبان من السيطرة على الطريق المؤدي إلى مزار شريف وبلخ، فاجتاحت قواتهم الطريق، لكنها سرعان ما وُوجهت بمقاومة مزدوجة من قِبل ميليشيات أخرى استطاعت طردها خارج تلك المنطقة في واحدة من أول هزيمتين كبيرتين لطالبان. وقد زعمت الميليشيات الأوزبكية أنها أسرت المئات من طالبان في ذلك الوقت، ووضعت الشبان منهم في حاويات شحن، ثم تركتهم في الصحراء ليموتوا اختناقًا. وفي العام المقبل، عادت طالبان بقوة أكبر، وأخذت المنطقة نهائيًّا، ومارست فورة قتل أيامًا عدة وإطلاق النار على أي شخص يظنون أنه أوزبكي، أو تركماني أو هزاري أو طاجيك، سواء كان مقاتلًا أو مدنيًّا. كان لطالبان مع الهزارة خاصة عداوة عميقة، وواصلت استهداف الهزارة سنوات، بارتكاب فظائع في المحافظات المجاورة في عامي 2000 و2001م، بما في ذلك محافظة بيت الهزارة، باميان، وعندما فجرت طالبان في وقت لاحق تمثالي بوذا في باميان الشهيرة، اللذين يرجعان إلى القرن السادس، وينظر إليهما على نطاق واسع بوصفهما مثالين بارزين للفن البوذي، وكان تدميرهما بمنزلة اختراق قلب تراث الهزارة أكثر منه تدميرًا لتمثالي بوذا. فتماثيل بوذا الأخرى في محافظات أخرى ظلت بمنأى عن حركة طالبان، ولم تمسسها.

شاهدنا في ذلك اليوم مقاتلي طالبان وهم يمرون على الطريق، وظهرت طائرات الميغ السوفييتية في السماء، طائرات مقاتلة تحلق موشكة الانقضاض فوق خط القافلة مع هدير يصم الآذان، وفي لحظة خشيت من كونها غارة جوية، فهل اشترى مسعود طائرات مقاتلة؟ كانت القوات غير مبالية، ويبدو أنهم شاهدوا هذه الطائرات من قبل، ونظرت إلى السماء الزرقاء فإذا واحدة من الطائرات تجنح فوقنا، وترتفع، فلم

تكن هناك أي ذخائر تحت أجنحتها، وأوضح زملائي أن طالبان تمتلك طائرات قليلة مع أنظمة تسليح محدودة، وكانت حكومة طالبان السوفييتية قد دفعت أجور تدريب الكثير من طياريها في الأيام الخوالي مقابل طلعات جوية لهم من وقت لآخر، وعادت على خط الجبهة، في عملية استعراض للقوة، وكنت أتساءل عما يعتقده الطيارون في تلقي الأوامر من حركة طالبان، فالمفترض أنهم على الأرجح مهذبون ومهنيون؛ أم كان عليهم أن يطلقوا لحاهم الطويلة مثل أي شخص آخر؟ وكيف لهذه اللحى أن تناسب أقنعة الأكسجين؟ بعد سنوات علمت أن وكالة المخابرات المركزية كانت تحلق بطائرات استطلاع من دون طيار فوق أفغانستان منذ عام 2000م، وأنه في إحدى المرات أرسلت طالبان طائرات الميغ لاعتراض واحدة منها، وخلال صيف عام 2001م دارت مناقشة ساخنة بين مسؤولين في البيت الأبيض حول تسليح طائرات من دون طيار في وكالة المخابرات المركزية بالصواريخ في محاولة لقتل أسامة بن لادن.

وفي مايو/ آيار 2001م، كان من الواضح أن لا أحد منا لديه أي فكرة عما يخبئه المستقبل، وكانت القافلة طويلة؛ لذلك قررنا التباطؤ في السير، حيث كان من الصعب تحمُّل العوادم السوداء الساخنة المنبعثة من جوانب الدبابات المارة من مسافة قريبة منا، وتوغلت القافلة الماضية في سبيلها ربما نحو عشرين دقيقة، ثم غابت أخيرًا بعيدًا إلى الشمال الشرقي، تاركة لنا هذا الهدوء مرة أخرى، بين الجبال القديمة، مع أصوات تتلاشى من الطائرات التي يتردد صداها عبر الوادي، وقد تركنا القوة العسكرية تمخر أنحاء القارة، وواصلنا المسير إلى بلخ.

أتذكر كيف بدت بلخ في اليوم الأول: بائسة، وسيطر عليّ التشاؤم كلما سرنا في الساحة الرئيسة، وسط مدينة قديمة مهزومة تمامًا، وهسوان تسانغ، هو راهب بوذي ومؤرخ، مر ببلخ قبل أكثر من ألف سنة، وأشار إلى تماثيل بوذا المرصعة بالجواهر[2] وماركو بولو كان هنا، واصفًا إياها بأنها «المدينة الرائعة كبيرة الحجم»[3] ولا شيء

من ذلك الآن، وهنا كان لا يُحتفى بالتاريخ، بل يُنسى أيضًا، وكانت المدينة مجرد تراب ورمل.

وبعد سنوات عدة علمت أن وليام دوغلاس، قاضي المحكمة العليا في الولايات المتحدة، زار بلخ في يونيه/ حزيران 1957م خلال رحلة صيفية على الطريق من باكستان إلى إيران مع زوجته وصديق، وكانت ردة فعله مماثلة لردة فعلي. في ذلك الوقت، كانت آسيا الوسطى تعيش بسلام، وتعج بكثير من المسافرين السياح المغامرين والبوهيميين من أوروبا والولايات المتحدة يجوبون بشكل روتيني المنطقة الخشنة للمغامرين (درب الهبيين)، ومن المرجح أن رخص أسعار الحشيش عالي الجودة في أفغانستان والأفيون زادها شعبية. والقاضي دوغلاس، وهو رجل الفقه والمغامرة، كتب كتابًا عن رحلاته بعنوان (**غرب نهر الإندس**). ووصف بلخ، بأنها المدينة التي «ذات مرة نافست بابل ونينوى»، لكنها حاليًّا لا تضم سوى «سوق أكلته العثة»:

«إن المدينة التي عرفها الإسكندر الأكبر، والتي كانت لا تزال مزدهرة في القرن السابع الميلادي قد بادت، واختفت، واليوم هناك بقع من العشب بين أكوام من الأنقاض، حيث الفتيات الصغيرات يرعين قطيعًا من الماشية بنية اللون»[4]. وكاتب الرحلات البريطاني روبرت بايرون قدم صورة مماثلة عام 1934م. «الأشكال البيضاء – الرمادية البالية للمعمار الماضي، التلال، المجعدة والمغسولة من المطر والشمس، واهنة أكثر من أي عمل آدمي رأيته في أي وقت مضى»، وكتب[5] دوغلاس:

«بالنسبة إلى عالم الآثار هذه الأنقاض ستكون بلا شك ملهمة، أما بالنسبة إلي فقد سببت لي الاكتئاب فقط» أتذكر الرياح الساخنة عندما خرجت من سيارتنا في اليوم الأول، وكانت الشمس مسببة للعمى، والساحة ملفعة بالغبار، وكان ذلك أكثر من الاكتئاب، وكان ساحقًا.

وكنا مجبرين على العثور على طالبان وتسجيل وصولنا لديهم، لكن رفقاء السفر والمهندسين والعاملين في المجال الإنساني الأفغان، اقترحوا بناءً على حالة الطقس الانتظار ريثما تخف حرارة الشمس قليلًا، في ظل بيت الشاي المجاور، فلا أحد يمكنه أن يعمل عملًا مجديًا في هذه الحرارة اللاهبة، وقد وجدنا أنفسنا جميعًا لا نفعل شيئًا غير أن نتراكض إلى هناك، مغطين أفواهنا بالمناديل؛ لعلها تقينا من الغبار، فما إن وجدنا أنفسنا في الظل حتى سارعنا بشرب الشاي الأخضر وأكل البرتقال الناضج أكثر مما يجب، وجلسنا على وسائد متربة، وقد تلاشى لونها الأحمر القاني، وصُفّت حول حصيرة من القش، ومر علينا الوقت في الحديث، وأعجبت بالمشغولات الخشبية للجدران ونوافذ بيت الشاي التي كانت تتكون من شرابيّات موضوعة بشكل مرتب مع تصاميم منحوتة مع خشب غير مطلي، متكسر ومتلاشٍ. شربت الماء من قدح قصدير، وأرحت عيني المحروقة من الشمس، وأحد زملائي الأفغان، المهندس محمد، تجاذب أطراف الحديث باللغة الدارية مع مواطنه زميلي سهيل، ويبدو أنهما سمعا تقريرًا إخباريًّا في الإذاعة، فشرعا يناقشانه، وكانت حركة طالبان حاضرة في نشرات الأخبار في كثير من الأحيان تلك الأيام، وعلى الرغم من انتهاكات حقوق الإنسان، كانت الأمم المتحدة قد اعترفت بجهود طالبان الناجحة الرامية إلى القضاء على زراعة الخشخاش، ثم قامت طالبان بنسف تماثيل بوذا القديمة في باميان، وهو الحدث الذي غطته وسائل الإعلام في أنحاء العالم، وسهيل كان يشرح شيئًا عن التماثيل لمحمد، فلا أستطيع أن أفهم لغة الداري، ولكني سمعت كلمة **البوذية**. قال المهندس محمد شيئًا عن الدالاي لاما و**جانغ** كلمة تعني الحرب، وسهيل كان يضحك، ويرد عليه في المقابل، ويهز رأسه.

كانت مشاهدتهما ممتعة، وكان الرجلان متباينين جدًّا، والمهندس محمد طويل القامة قوي البنية، وله صوت عميق ولحية بنية اللون كبيرة وصلت إلى ما يقرب من بطنه، وكان مهذبًا للغاية بشكل استثنائي، وجادًّا، وحساسًا، وعملاقًا لطيفًا، وكان يرتدي اللباس التقليدي المكون من سروال وقميص وسترة بنية اللون. أما سهيل فكان صغير

البنية، ومؤذيًا، وساخرًا، ويلبس نظارات بلحية رمادية وقصيرًا وبدينًا قليلًا، وعالي الصوت، ويرتدي دومًا اللون الأبيض، وقد سجلت في بعض الأحيان مناقشاتهما الغريبة والأحاديث التي دارت بينهما في دفتر ملاحظاتي.

وكان سهيل غالبًا ما يروي النكات عن العدد الكبير الملاحظ من الأطفال الذين ولدوا في مخيمات اللاجئين الجديدة، ولدوا في خضم الأزمة.

«يجب على هؤلاء الناس أن يكفوا عن صنع الأطفال» وكان يقول وهو يبتسم بمكر، ويضيف: «لا يفعلون شيئًا غير البقاء في خيامهم، وإنجاب الأطفال». أما المهندس محمد فكان يهز رأسه أسفًا، سواء على سهيل أو على محنة اللاجئين.

«عن ماذا كنتم تتحدثون يا شباب؟» سألت. أجاب سهيل: «نحن نتحدث عن بوذا»، وأضاف: «البي بي سي أجرت مقابلة مع زعيم البوذيين، الدالاي لاما. سألوه عن رأيه في تمثالي بوذا في باميان اللذين نُسِفا» وكان قد مضى بضعة أشهر فقط منذ وقوع الحادثة.

«ماذا يقول الدالاي لاما؟» سألت سهيل. «الصحفي سأله إذا كان غاضبًا؟» قال سهيل. فقال: إنه لم يكن غاضبًا. قال شيئًا مثل: «ما وقع، قد وقع» «ثم تحدثت بي بي سي عن كيفية تعليم الدالاي لاما للبوذيين في التبت، ولا يكون غاضبًا من الصينيين لسيطرتهم على بلادهم» ويمكنني أن أتصور بقية الحديث، فنحن نتعلم الرحمة من أعدائنا، والكل يعاني، توقنا لوجود تماثيل، فذاك مسعى غير مجدٍ، فبوذا موجود بغض النظر عن التماثيل، وقد دُمِّرت التماثيل بالفعل في فراغ الخلود.

المهندس محمد سألني إن كنت أعرف الكثير عن البوذية؟ قلت له: ما بوسعي، نسخة مختصرة وغير معقدة، وسهيل قاطعه مرات عدة نيابة عني، وترجم إلى اللغة الفارسية، مناقشًا أكثر بعض الشيء مع محمد، ويضحك.

أوضح سهيل: «قال المهندس محمد: الأمر ينطوي على شيء من الغرابة، فهذا زعيم البوذيين نسفت له طالبان بوذا».

ويقول المهندس محمد: إن عليه أن يغضب. وكنت أقول له:

«هذا هو دينهم، وإنهم لا يهتمون بأشياء مثل التماثيل»، فيسألني – وسهيل يضحك مرة أخرى – قال: إنه كان يسأل: «ومن ثم لماذا بُنِيت التماثيل أساسًا، إذا كانوا لا يهتمون بالتماثيل؟» ضحكت قائلًا: «أنا لا أعرف! إنه أمر ليس له أي معنى!» ضحكنا كلنا، حتى المهندس محمد التفت إلي، وكانت لغته الإنجليزية متقطعة، وأضاف: لكن هذا الدالاي لاما، تفكيره جيد. بالتأكيد، قلت: إنه يمكن أن يتعلم منه الأفغان الكثير. إنه لأمر سيئ ألا يكون مسلمًا، قال المهندس محمد، وأضاف: إنه تقي جدًّا.

سهيل خفض صوته كما لو كان يتحدث معي فقط، على الرغم من أن المهندس محمد يمكنه بسهولة أن يسمع، وهذا هو ما أقوله: **إنه لأمر غاية في السوء أننا لسنا بوذيين**، ولكزني في الصدر. ذات يوم كنتم كلكم بوذيين، على ما أعتقد.

انتهينا من الشاي، وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب، وحان الوقت للعمل، فكنا نجر أقدامنا بتثاقل، فقد سقنا حتى مسافات طويلة، وكنا مرهقين، والآن وجب علينا إبلاغ زعماء المدينة لتجنب اعتقالهم لنا.

هدأت الرياح، وانقشع الضباب المغبر عن سماء زرقاء، ومشينا إلى ساحة البلدة الحزينة، فرمقنا رجل بملامح وجه مليء بالتجاعيد بنظرة من عينيه من عربته التي يجرها حمار ومحملة بلفات الغَزْل من مختلف الألوان: الأحمر الداكن، والأخضر، والأصفر. وفجأة صدمني النقاش في بيت الشاي: تلك التماثيل وقفت أكثر من 1000 عام، ثم دُمِّرت قبل أسابيع، وأستطيع أن أتذكر ما فكرت فيه لنفسي: لقد عاش ألف جيل هنا حرفيًّا، ثلاثة آلاف سنة أو أكثر، والشمس تلقي بظلال طويلة الآن، وعلق الغبار في الهواء، وهزتني العراقة الهائلة للمكان، فباب بيت الشاي صُفق صفقًا مغلقًا وراءنا بعد

مغادرتنا، ما سبب ذعرًا للحمام في الساحة، فطار محلقًا في السماء، والجبال تربض بعيدًا، غير مبالية بمرور الزمن، وصدى صفقة الباب أثار فيّ أبياتًا من الشعر:

لا موجات تتحطم

فكل ما كان في حاجة إلى نهاية قد انتهى منذ زمن طويل

والموج البارد يرتفع إلى الأعلى والأسفل بدل الداخل والخارج

لأن لا خشب مجروفًا هناك ولا شاطئ[6]

هززت نفسي، وتهيأت، فوصلنا إلى سيارتنا، وانطلقنا.

في أماكن مثل بلخ تشعر حقًّا أنك في السهوب، فقارة أوراسيا تمتد أمامك ومن خلفك، ويمكنك أن تشعر بالاتساع الهائل، سهلًا بعد سهل، ومدى بعد مدى، والوادي بعد الوادي، من البرتغال إلى المحيط الهادي. مفكرًا فيها بوصفها أرض الله الواسعة – سواء عبرتها بالسيارة أم على الأقدام – فأنت تدرك كم هي شاسعة، وتبدأ برؤية كيف أن الأرض نفسها، هذه القارة التي لا تنتهي، قد أغرت قبيلة صينية أو مقدونية قديمة، بأن تناوش، وتغزو جيرانها المماثلين لها كثيرًا. **دعونا نخرج**، ربما قالوا، **لمعرفة ما يكمن وراء الأفق وراء ذلك المدى البعيد.**

الغزو، بالتأكيد، ليس ظاهرة حديثة، فقد انشغل البشر بأشكال مختلفة من العنف المنظم عشرات الآلاف من السنين، والتعاون مع بعضهم بعضًا لممارسة العنف ضد خصوم مشتركين: للبحث عن الحيوانات، على سبيل المثال، أو لمعالجة الخلافات مع عصابات أخرى من الصيادين. والإنثروبولوجيون خلصوا معًا إلى مثل هذا السياق من العنف التعاوني، والقيام بالعنف معًا ضد البشر أو الحيوانات أو للدفاع ضد العنف من الناس الآخرين[7]. ولكن كم عمر **الحملة** والسفر آلاف الأميال لممارسة العنف؟ ما أصولها؟ فالقرائن قد تكمن في جدران المدن القديمة مثل جدران بلخ.

على مشارف بلخ الحديثة كثير من الجدران والقلاع القديمة، بما في ذلك القلعة القديمة الهائلة إلى الجنوب الشرقي المعروفة باسم قلعة جانغي – دار الحرب – موقع جُدِّد في القرن التاسع عشر، ولكنه أقدم من ذلك بكثير[8] فالجدران الطويلة حول بلخ، وعلى الأرجح أبراج المراقبة في قلعة جانغي أيضًا، قد بُنيت، وأُعيد بناؤها منذ عهد الإسكندر، وعندما تمر بها، ترى شيئًا ما رآه شخص آخر من قبلك قبل 3000 عام.

جدران بلخ وأسوارها، بطبيعة الحال، ردود على عالم العنف، فقد بُنيت لمواجهة التهديد بالغزو، وفي بلاد ما بين النهرين، على النيل، وفي أماكن أخرى في إفريقيا وآسيا، بُنيت المدن الأكثر قدمًا من بلخ بلا جدران ترابية أو صخرية، على الرغم من أن بعضها كان له دفاعات بدائية من الخشب، ومع ذلك، ربما كانت المدن الأقدم دون دفاعات مادية حقيقية، فقط الرجال والنساء يراقبون على الدوام، ويدافعون عن منازلهم بالسلاح وباليد، كما فعلت بعض القبائل النائية في إفريقيا وأمريكا الجنوبية حتى وقت قريب، وربما كان في زمن ما هناك – فلاسفة وعلماء أنثروبولوجيا يتجادلون حول التفاصيل – عندما كان البشر غير عنيفين ضد بعضهم بشكل جماعي، ولم تكن هناك أي أسلحة أو جدران على الإطلاق، ولكن عند نقطة بعيدة موغلة في الزمن، انتهت عصور ما قبل التاريخ، وبدأ العنف الحقيقي، ثم جاءت نقطة أخرى عندما بدأ رجال مسلحون جيدًا في السفر مسافات طويلة في مجموعات لممارسة العنف. في نحو ذلك الوقت بدأ الناس في بناء الجدران الكبيرة مثل تلك التي في بلخ.

التغيير الذي سمح للرجال المسلحين بالتحرك في مجموعات كبيرة هو ترويض الخيول، فلم يكن ممكنًا من دونها شن أي حملة في أوراسيا، بل كان ذلك مستحيلًا، فالسهوب، وهي بحر شاسع من الأراضي، يصعب اجتيازها سيرًا على الأقدام، ناهيك عن الإمدادات، وقد ظهرت الخيول المستأنسة أول مرة في آسيا الوسطى على الأرجح منذ أكثر من 4000 سنة[9]. فالخيول الصغيرة في السهوب سُرّبت إلى الشرق الأوسط نحو 1700 قبل الميلاد، وكانت تُستخدم لسحب العربات، ثم ظهرت خيول الحرب الأطول

للركوب في السهوب بعد بضع مئات من السنين، ومن يقف على أي ارتفاع من الأرض حول بلخ اليوم، وينظر شرقًا أو غربًا عبر الفسحة القارية، يمكنه أن يتخيل الرعب الذي سببه ركوب الغزاة للخيل: حيوانات غريبة ترعد رعدًا إلى الأمام مخلفة وراءها سحبًا من الغبار، وتقترب بأسلحة مشحوذة، وربما حتى بالسهام. وكلٌّ من السرعة والقوة الحركية كانت صادمة بلا شك، فيجب أن يكون أحد الذين نجوا من الإرهاب بالتأكيد قد فكر: **يجب أن نفعل شيئًا لمنع ذلك من الحدوث مرة أخرى. نحن في حاجة إلى بناء نوع من الحواجز**، وهكذا بدأ بناء الأسوار والقلاع.

من السهل أن ننسى اليوم في عالم الطائرات والمدفعية الثقيلة أهمية الجدران التاريخية بوصفها دفاعات، فبعض المجتمعات تحرص على فكرة إحياء ذكرى الجدران القديمة غالبًا بوصفها نوعًا من الفضول، ورمزًا للتقدم، وكأنها تقول: **هذا هو الجدار القديم، ولكننا لسنا في حاجة للجدران بعد الآن**. هذا هو الحال مع سور الصين العظيم، وأجزاء من خط ماجينو، حتى بقاياه في برلين. مركز العالم المالي، وول ستريت، سُمّي بهذا الاسم لأنه كان ذات مرة في موقع جدار بناه المستوطنون الهولنديون للدفاع ضد هجمات الهنود الحمر. لقد تقدمنا **كثيرًا**، ولكن سيكون من الضرب في الخيال الاعتقاد أن الجنس البشري قد انعتق من الدينامية القديمة للإرهاب التي أدت إلى أول الحواجز الدفاعية، والجدران لا تزال إلى حد كبير جزءًا من الحياة المعاصرة – في إسرائيل، وفي المنطقة الخضراء من بغداد، وعلى الحدود المكسيكية مع الولايات المتحدة، حتى في وول ستريت نفسها، مبانيها منعت الآن الخروج والدخول لحركة المرور من خلال جدران عالية لإحباط هجمات أي شاحنة – الملغومة. جدران بلخ مجرد فصل متقدم في علم الأنساب الذي يمتد إلى يومنا هذا. وقلعة جانغي لا تزال حصنًا اليوم، وتستخدم من قِبل الجيش الأفغاني للغرض نفسه.

جغرافيا بلخ تؤكد أيضًا أهمية المسافة في الشؤون العسكرية، والخدمات **اللوجستية** الهائلة للحملات والعنف المنظم، ولعبور السهوب، والوصول إلى بلخ،

ومشاهدة أرض القارة الممتدة إلى الأمام والخلف، آلاف الأميال شرقًا وغربًا، والمرور بالجبال الشاهقة التي ترتفع أميالًا في السماء، تكون مضطرًّا إلى التفكير في الجهد البدني المطلوب لحشد المعدات ووسائل النقل لحرب طويلة المدى: نقل الإسكندر مئات الآلاف من الرجال والخيول، جنبًا إلى جنب مع أسلحتهم، والعتاد، والمواد الغذائية، من اليونان إلى سهول باكستان الحديثة، كما فعل جنكيز خان نفسه بين الصين وجنوب أوروبا، ومن الصعب تخيّل كل هؤلاء الرجال يتنقلون عبر هذه المساحات الشاسعة مع الكثير من المواد والمعدات.

كيف تم ذلك؟ ليس بشجاعة المحاربين أو الهمة. يقول المحللون العسكريون في بعض الأحيان: إن الجنرالات النظريين فقط يفكرون إستراتيجيًّا في تشكيلات ساحة المعركة، والهجمات المتتالية، والالتفاف من الأجنحة، والحشود، وتكتيكات الحركة. والجنرالات الحقيقيون هم من يفكرون في الخدمات **اللوجستية**. واقع الحرب هو أنه على الرغم من المثل الرومانسية حول الشجاعة على خط الجبهة، وقدسية الاستشهاد، والحاجة إلى القيادة ودهاء المعركة، فإن معظم الجهد يعتمد على النهاية الخلفية، إذ لا يمكن أن تخوض حربًا، ناهيك عن الفوز بها، ما لم يكن بمقدورك أن تظهر في أرض المعركة.

إن الأدوات الفعلية للعنف اليوم – الجنود والمدفعية والمدافع وطائرات الهليكوبتر – ليست سوى جزء صغير من القوة العسكرية؛ أي ما يسميه ضباطها بـ (أسنانها) فمعظم الجسم المادي للجيش،أو (الذيل) يتكون من الكتائب التي تتلقى الوقود والغذاء والذخيرة، وتنقلها، فهي التي تحرك الأسنان إلى حيث يجب أن تكون المعركة، وتدعم المقاتلين في قتالهم، وبالنسبة إلى حرب الولايات المتحدة في أفغانستان، تضطر القوات إلى نقل الجزء الأكبر من حمولتها على متن سفينة من الولايات المتحدة، وأحيانًا على طول طرق ملتوية للغاية في أوراسيا لتجنب إيران وحتى في بعض الأوقات باكستان، وعندما أغلقت الحكومة الباكستانية الطريق السفلي الوحيد من كراتشي في أواخر

عام 2011م، ارتفع مؤشر تكاليف النقل العسكري إلى 100 مليون دولار في الشهر؛ أي ما مجموعه 1,2 مليار دولار سنويًّا[10] وفي السنوات الأخيرة من الحرب الأفغانية، نُقلت الحاويات عبر المحيط الأطلسي على متن سفينة، وفرّغت في المواني على بحر البلطيق، وحُمّلت على القطارات، وسافرت عبر آلاف الأميال من روسيا وصولًا إلى آسيا الوسطى، ثم وضعت على شاحنات لتُرسَل إلى أفغانستان، وفُرّغت الحاويات الأخرى في المواني الألمانية لتؤخذ مباشرة بواسطة الشاحنات من خلال النمسا، والمجر، ورومانيا، وبلغاريا، وتركيا، مرورًا بجسر البوسفور الذي يربط أوروبا بآسيا الصغرى، لتصل إلى جورجيا وعبر أذربيجان إلى ميناء باكو، ثم نقلت عبر بحر قزوين إلى كازاخستان، التي اتخذت مرة أخرى طريق البر عبر الجزء العلوي من بحر آرال، وعبرت إلى قيرغيزستان، ثم إلى أسفل عبر طاجيكستان نحو هندو كوش، فاستغرقت وسائل النقل أشهرًا[11].

لوجستيات تقديم الدعم من هذا النوع في الوقت المناسب إلى جيش بعيد محيرة حقًّا، وهذا هو السبب الذي يجعل المؤرخين رفيعي المستوى للصراع العسكري، مثل جون كيغان، يكرسون جل اهتمامهم لقضايا الحركة العسكرية، وتفاصيل الحياة الحقيقية لحيوات الجنود، بل هو أيضًا السبب في أن المؤرخ الفرنسي مارك بلوخ، وهو أحد مؤسسي مدرسة **الحوليات** متعددة تخصصات الدراسة، ركز بشكل وثيق على القضايا اللوجستية العسكرية في كتابه (**هزيمة غريبة**) حول انهيار الجيش الفرنسي خلال الغزو النازي لفرنسا عام 1940م. الذيول العسكرية باهظة التكلفة، وهي غالبًا عامل الاستعداد النفسي في النجاح العسكري، والمؤرخ بول كيندي، الذي حلل تاريخ الشؤون الدولية والقوة الاقتصادية، افترض أن نتائج معظم الصراعات الحديثة كلها تقررها العوامل الاقتصادية مسبقًا.

ويشير إلى أن القوات مع مخرجات الإنتاج والاقتصاد المتفوق يمكنها الركون إلى هذه الحقيقة حتى في أحلك الساعات: على سبيل المثال، بالنسبة إلى الدول التي أصبحت حلفاء ضد ألمانيا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، فقد ضمنت النصر، عندما

التحمت معًا؛ لأن الناتج الاقتصادي وخطوط الائتمان مجتمعة تجاوزت قدرات دول المحور[12] «كان السؤال الجوهري عندما بدأت تلك الحروب: هل سيتكاتف الحلفاء معًا؟ عام 1914 و1939م، لم يكن الاتحاد مضمونًا» وسواء اتفقنا مع هذا أم لا، فيمكننا أن نلاحظ أن سبب هزيمة ألمانيا في الحربين يكمن في وجود الكثير من الأعداء لها، ومن المرجح أن هتلر فهم هذا، كما فعل القادة الألمان عام 1914م؛ فلم تُرِد ألمانيا حربًا متعددة الجبهات في كلتا الحربين، وهذا هو السبب في أن القيادة العليا الألمانية عام 1914م كانت تأمل في ضربة استباقية في وقت مبكر لفرنسا قبل أن تتحول ضد روسيا (الإستراتيجية فشلت بشكل واضح)، ولماذا بعد غزو هتلر لفرنسا عام 1940م، سعى نحو اتفاق سلام كاذب مع بريطانيا؟ لأنه كان قد وضع خططًا لغزو روسيا، وهو الطموح الأكبر.

شهية هتلر لغزو روسيا، هي جزء من فكرة أكبر لكسب **المجال الحيوي** لألمانيا، وكانت في جزء منها اقتصادية؛ لأن قلب الأراضي الروسية ذو قدرات إنتاجية، والسهوب ذات موارد طبيعية غير محدودة تقريبًا، وقد أراد هتلر كليهما: وسيلة لضمان التفوق الألماني في العالم، وكانت هذه أهدافه الرئيسة، التي يتقاسمها نائبه رودولف هيس، استنادًا إلى توجيهات مستشار الرجلين الأكبر ومعلمه في القضايا الجيوسياسية، كارل هوشفر الذي كان يعتقد أن من يسيطر على أوراسيا العظمى، يستطيع أن يسيطر على العالم. هذه النظرية لم تكن غير شائعة في ذلك الوقت[13] فعام 1919م كتب المنظر البريطاني هالفورد ماكيندر في كتاب (**المثل الديمقراطية والواقع**): من يحكم شرق أوروبا يحكم المناطق التي تحكمها روسيا، ومن يحكم هذه المناطق يحكم جزيرة العالم (أوروبا وآسيا وإفريقيا) ومن يحكم جزيرة العالم يحكم العالم[14].

في صيف عام 1941م، أسرّ هتلر لضيوفه في حفل عشاء، ومعظمهم من مسؤولي الحزب النازي، بأحلامه في روسيا: «سنأخذ الجزء الجنوبي من أوكرانيا، وخاصة شبه جزيرة القرم، ونجعله مستعمرة ألمانية[15] وسوف تكون القارة الداخلية مصدرنا من

المواد الخام» بالمواد الخام الروسية، كان هتلر يعتقد أن ألمانيا لا تقهر، ولم تكن الفكرة للقتال من أجل الأيديولوجيا فحسب، أو للحصول على الأراضي ميلًا إثر ميل لمجد الغزو، على الرغم من أن كل هذه الأمجاد قد تكون أثرت في تفكير هتلر الإستراتيجي، ولكن للفوز والاستيلاء على الموارد التي يمكن استخدامها بعد ذلك في ألمانيا لتعزيز مزيد من الغزو. ومن ثم، فإن هذا التفكير كان ملازمًا للإسكندر الأكبر، والهون والمغول، ونابليون، وغيرهم الكثير، فالغزو يولد المزيد من الغزو.

الأميرال إيسوروكو ياماموتو، القائد الأعلى للقوات البحرية اليابانية في الحرب العالمية الثانية، فهم الجانب الآخر من القضايا الاقتصادية: خطر مهاجمة عدو قوي دون أن تنوي هزيمته بشكل تام، لقد ثبت تاريخيًّا اليوم أنه بعد نجاحه في بيرل هاربر عام 1941م عبر الأميرال عن أسفه لأن اليابان نجحت فقط في «إيقاظ عملاق نائم»[16]، وتوقع أن اليابان سوف تكون قادرة على القتال بنجاح في المحيط الهادي فقط نحو ستة أشهر. «إن أي شخص شاهد مصانع السيارات في ديترويت وحقول النفط في ولاية تكساس [التي رآها ياماموتو، بعد أن درس، وسافر في الولايات المتحدة في العشرينيات من القرن الماضي] يعلم أن اليابان تفتقر إلى السلطة الوطنية لسباق بحري مع أمريكا»[17] ياماموتو، الذي كان مواليًا للإمبراطورية، نفذ الأوامر حال أعطيت، وخطط لهجوم مفاجئ رائع، ولكنه يعلم أن اليابان كانت خاسرة من لحظة بدء الحرب.

وفي النهاية، قد يكون الغزو مجديًا فقط عندما تلعب لتحافظ على ما فزت به، والغزو مهم للحفاظ على السلطة، خاصة بالنسبة إلى الحكام غير الوراثيين، كما قال نابليون ذات مرة: «قوتي تعتمد على مجدي وأمجادي على الانتصارات التي فزت بها. وقوتي سوف تنهار إذا لم أغذِّها بأمجاد جديدة وانتصارات جديدة، الغزو جعل مني ما أنا عليه، فالغزو وحده فقط يمكنه أن يمكنني من الحفاظ على منصبي ومكانتي»[18]، المشكلة مع هذا الخط من التفكير واضحة: كلما تنتصر إمبراطورية، تزدد تكاليف الحفاظ على فتوحاتها. في هذا الصدد، الغزو يشبه مخطط بونزي: إنه لا ينجح إلا ما

دام العائد من الإيرادات الإجمالية يغطي التكاليف المتزايدة. عندما تنخفض العائدات، ويصيبها عجز، يؤول النمو إلى السقوط، والحفاظ على صمود الجيش النظامي باهظ الثمن. ويناقش آدم سميث في عمله الملحمي (**ثروة الأمم**)، على وجه التحديد كيف أن الحكومات في أثينا الكلاسيكية وروما تكبدت زيادة التكاليف لجيوشها في الميادين، عندما واجهت الأخطار المتزايدة التي شكلتها قوات غير نظامية صغيرة استخدمت تكتيكات مقتصدة أكثر، وهو الخلل الذي «وجدت فيه جيوش غنية ومتقدمة صعوبة في الدفاع عن نفسها ضد دول فقيرة وهمجية». قال سميث: إن الخلل تم التغلب عليه في عصر البارود، عندما أخضعت الإمبراطوريات بسهولة واقتصاديًّا القوات البربرية بالبنادق والمدافع: «في العصر الحديث، الفقراء يجدون صعوبة في الدفاع عن أنفسهم ضد قوات غنية ومتقدمة»[19]، فربما لو كان سميث على قيد الحياة اليوم، لوجد أن الإرهابيين والمتمردين المحدثين، الذين يمكنهم التمويل الذاتي التام لأنفسهم، ويحصلون بسهولة على مواد متفجرة في السوق المفتوحة، باتوا يشكلون خطرًا، مثل برابرة الماضي.

عوامل أخرى إلى جانب الاقتصاد، وبطبيعة الحال، تسهم في نتائج الحرب: الطقس، والأيديولوجية، والروح المعنوية، وصحة الجنود، والحظ، والجغرافيا. هذه المسألة الأخيرة هي حيث تاريخ بلخ ربما الأكثر إنارة. نعم، المدينة هُزمت مرارًا وتكرارًا على مر القرون، فقد مكثت تحت نير القوة العسكرية الأجنبية مرات كثيرة جدًّا لا تعد، ولا تحصى، ومع ذلك أفغانستان بوصفها دولة نادرًا ما حُكمت من قِبَل الأجانب مدة طويلة. كيف يحدث هذا؟ كيف يتم ذلك وبلخ كانت واحدة من أولى المدن المحتلة عندما غزاها الجيش السوفييتي عام 1979م؟ بقليل من الدماء، ولكن بعد أكثر من ثماني سنوات، كانت القوات السوفييتية مضطرة إلى التراجع وترك الأمر للقوات المحلية؟ سوف يصر المقاتلون المجاهدون (كما فعل الكثيرون معي) على أنهم بشجاعتهم وإصرارهم هزموا الاتحاد السوفييتي. الأمريكيون قد يزعمون أن الهزيمة كانت بسبب منظومات الأسلحة والدعم الذي قدمته وكالة المخابرات المركزية وضخها إلى المجاهدين، وخاصة بعد

عام 1985م، في السنوات الأخيرة من الاحتلال السوفييتي. وبالتأكيد كل ادعاء له ما يبرره، ولكن هناك شيء آخر، عامل أكثر أهمية في اللعبة: الأرض نفسها، والخصائص الجغرافية لأفغانستان، التي لا نهاية لها، جبالها الصخرية.

الجيوش، بعد كل شيء، يجب أن تكون قادرة على التحرك: القدرة على نقل الجنود هي في صميم ما يعنيه أن تمارس العنف على المستوى العسكري الحديث، ويمكن للجيوش أن تنزف حتى الموت عندما لا تستطيع حماية خطوط إمداداتها، عندما يثبت أن المحافظة على الـ (أسنان) مع الـ(ذيل) باتت صعبة جدًّا. هذه الفكرة البسيطة في الاتصال برزت غالبًا مع غزوات نابليون لمصر وروسيا، فضلًا على إسبانيا، حيث جماعات المتمردين – **حروب العصابات** الأولى – التي تعمل انطلاقًا من معاقلها الجبلية الآمنة استنزفت الجيش الفرنسي سنوات»[20]، فخصائص أفغانستان الجغرافية البسيطة يمكن أن تطحن حتى أغنى القوات العسكرية وتوقفها. تضاريس أفغانستان – التي تهيمن عليها سلسلة الجبال الرئيسة في الجانب الجنوبي من السهوب الأوراسية – توضح لماذا البلاد، بينما كانت تعمل كممسحة للجيوش العابرة، كانت إلى حد كبير في مأمن من السيطرة الأجنبية على مر القرون، حتى في مأمن من الحكم المركزي الأفغاني.

إذا استثنينا السهوب، فإن الجبال في الوسط لا يمكن الوصول إليها عمليًّا، فالمناطق الأعمق من أفغانستان ليست مكانًا للحملات، والهواء خفيف، والقوات والطائرات تجد صعوبة في الارتفاعات الشاهقة. التلال على التلال ووديان ضيقة عالية، والكهوف، والممرات، وبعضها مخفية، والكثير منها من المستحيل معرفته: طريق واعد ينتهي فجأة، مسار حمار صغير يوصلك فجأة إلى وجه صخرة صماء. الطرق الموجودة بين الجبال، من السهل أن تكون كمينًا، فالأمر معقد لوجستيًّا لملاحقة متمرد في ظل هذه الظروف، فجيش يمكنه أن يسيطر على مدن أفغانستان وطرقها، كما فعل الروس في الغالب في عقد الثمانينيات من القرن الماضي 1980م، وحلف شمال الأطلسي والولايات

المتحدة سنوات عدة منذ آنذاك، ولكن المتمردين لديهم عمق إستراتيجي كبير يعودون إليه منه يقومون بالهجوم المضاد، وهذا يجعل مهمة المحتل مستحيلة «خصوصًا عندما تم تحويل الجزء الأكبر من الجيش إلى مسرح آخر، كما حدث مع الولايات المتحدة في العراق».

يمتلئ تاريخ الوجود العسكري الأمريكي في أفغانستان بأسماء الوديان البعيدة – بيش، وكورانجال، ووايجال، وشورياك، وممر نهر نورستان – حيث أمضت الوحدات سنوات القتال بضراوة للسيطرة على الوديان شديدة الانحدار، فقط للتخلي عنها، عندما تغيرت الأهداف العسكرية، أو أصبحت غير ذات صلة بالوديان نسبيًّا. الجنرال جون كامبل، قائد القوات الأمريكية في شرق أفغانستان، قال لمراسل **نيويورك تايمز** في فبراير/ شباط 2011م: إن الجيش بدأ الانسحاب من وادي بيش: «هناك الآلاف من الوديان الجبلية المعزولة في جميع أنحاء أفغانستان، ونحن لا يمكننا أن نكون في كل منها»[21].

الجنرال ستانلي ماكريستال، القائد السابق للقوات الأمريكية في أفغانستان خلال موجة زيارات الرئيس باراك أوباما لأفغانستان منذ 2009–2010م «قبل أن يجبر على الاستقالة بسبب تصريحات نقلت في مقال **رولينج ستون** أعرب فيها مساعدوه عن آراء ناقدة لمسؤولي الإدارة»، قد يكون فهم جزءًا من هذه الحقيقة. عام 2010م عرّف الفشل للصحفي روبرت كابلان بعبارات بسيطة جدًّا: «سنعرفه عندما لا نكون قادرين على تحريك قواتنا ونقلها»[22]، وكانت المفارقة في تصريحه أنه بهذا الإجراء، وفي مناطق عدة في أفغانستان، بدأت هزيمة الجيش الأمريكي عام 2003م، عندما أخذت قوات طالبان تسيطر على مناطق بأكملها ومحافظات في الجنوب والشرق، وهي المناطق التي لم يكن بمقدور الجيش الأمريكي في الواقع أن يتحرك فيها بسهولة، وبدلًا من الاعتراف بتلك الإخفاقات، انسحب قادة الجيش من المناطق الصعبة، وركزوا في مكان آخر.

في فبراير/ شباط 2011م، اعترف وزير الدفاع روبرت غيتس باختصار أن الواقع أصعب في كلمة ألقاها أمام طلاب أكاديمية ويست بوينت العسكرية، في الوقت الذي كانت فيه الأزمة في ليبيا قد بدأت: (في رأيي)، قال جيتس: «إن أي وزير دفاع في المستقبل ينصح الرئيس مرة أخرى بإرسال جيش كبير من الأراضي الأمريكية إلى آسيا أو الشرق الأوسط أو إفريقيا ينبغي أن يفحص رأسه»[23].

الشيء الملاحظ أكثر عن أفغانستان هو أن عددًا قليلًا جدًّا يبدو من تعلموا منها الدرس: أنه حتى مع أموال ضخمة، فإن التحديات اللوجستية في السيطرة على البلاد عسكريًّا – المسافات، والجغرافيا، والنقل، والاتصالات – أكثر من اللازم، وليس مصادفة تاريخية أن الإمبراطوريات الأجنبية فشلت في كثير من الأحيان في أفغانستان، والأسباب دنيوية، وطوبوغرافية، ولا يمكن تجنبها مثل الجبال نفسها في قسوتها ووعورتها. لقد كانت ضربة عبقرية – إذا كان ذلك عن قصد – من أسامة بن لادن في استدراج الولايات المتحدة إلى أفغانستان حتى إن هرب هو إلى الراحة النسبية لمخبأ بعيد المنال في باكستان؛ الطعم والاستدراج.

أطلقت الولايات المتحدة العمليات العسكرية في أفغانستان، (عملية الحرية الدائمة) في ليلة الأحد 7 أكتوبر/ تشرين أول، عام 2001م، وكانت في نحو الساعة 09:00 بالتوقيت المحلي عندما بدأت الهجمات الجوية، وكنت أقيم في دار ضيافة صغيرة في بيشاور، باكستان، على بعد بضع مئات من الأميال من كابول. سمعت صوتًا خافتًا لطائرات في السماء، وكان الجيش الباكستاني والشرطة شددوا الإجراءات الأمنية حول بيشاور مع نقاط تفتيش وناقلات جند مدرعة تقف على نواصي الشوارع، وكانت هناك مخاوف من احتمال الشغب وحتى من انتفاضات مسلحة داخل باكستان، وكان من المفترض على نطاق واسع في ذلك الوقت أن كثيرًا من كبار قادة حركة طالبان وتنظيم القاعدة فروا من أفغانستان إلى باكستان، أو انضموا إلى حلفاء موجودين بالفعل هناك، وعلى الرغم من أنني لم أكن أعرف هذا في ذلك الوقت؛ أي إنني وزملائي كنا في تلك

الليلة في بيشاور قريبين جدًّا لكثير من مخططي هجمات 11 سبتمبر/ أيلول ومنسقيها. ديفيد رود، الصحفي تعرفت إليه في أثناء عمله في أفغانستان على مر السنين، وذكر في صحيفة **نيويورك تايمز** في سبتمبر/ أيلول 2002م أنه في أواخر عام 2001م «جرى تتبع 90٪ من الاتصالات والروابط الأخرى بين المشتبه بانتمائهم لتنظيم القاعدة في أوروبا وأفراد في باكستان إلى مدينة بيشاور»[24].

كل ما أعرفه أن خالد شيخ محمد نفسه كان يجلس في بيت الضيافة القريب، ويشاهد التلفاز، كما كنت أفعل، وإذا كان أعضاء تنظيم القاعدة موجودين في بيشاور، فربما كانت هذه على الأرجح واحدة من أكثر لحظاتهم ضعفًا، قبل أن يرتبوا ملاذات أكثر أمنًا، ومع ذلك كانت الولايات المتحدة تركز على أهداف في كابول وقندهار، وعلى مدى الليالي القادمة، كانت طائرات سلاح الجو الأمريكي وصواريخ توماهوك تجوب سماء المنطقة، وقد أجريت أنا وزملائي مكالمات هاتفية مع أفغانستان، في محاولة للتوصل إلى مسؤولي المساعدات الإنسانية وتقييم ما يجري. سمعنا أن الكهرباء قطعت في كابول، ووقعت انفجارات مختلفة في جميع أنحاء قندهار، ولكنها كانت تقارير سطحية. علمنا في وقت لاحق، ورأينا بأم أعيننا، أن القوات الأمريكية قد أصابت معظم القواعد العسكرية الرئيسة في مدن مثل كابول وقندهار، وكذلك الاستراحات والمساكن الأخرى التي يقال: إن أعضاء عربًا من تنظيم القاعدة عاشوا فيهابعبارة أخرى: الأماكن التي غادروها عندما جاؤوا إلى بيشاور. منازلهم في أفغانستان، إن لم تكن فارغة، فقد شغلتها فقط الزوجات والأطفال التعساء، وعدد قليل جدًّا من طالبان أو قادة القاعدة قتلوا أو حتى أصيبوا خلال تلك الحرب الجوية في أكتوبر/ تشرين أول 2001م. لم يحدث إلا في منتصف نوفمبر/ تشرين الثاني 2001م، أن قتل أحد من كبار التنظيم. كان هذا محمد عاطف، مصري الجنسية الذي ترأس قوة التنظيم العسكرية الصغيرة.

انفجارات! انفجارات! انفجارات! وسرعان ما سمعنا وصفًا للهجمات الجوية من الأفغان الذين فروا منها، كان من السهل أن نتصور عتاد الهجوم المباشر المشترك

في الهبوط على مكاتب طالبان وعلى بيوت القاعدة، وألواح الرخام تتكسر، والجدران تتهدم، والطابق الثاني ينهار على الطابق الأول، والنساء والأطفال يتناثرون إلى أشلاء بفعل المتفجرات أو يسحقون بالجدران المتداعية في كل مكان. لا يمكنني أن أتخيل فكرة أن المشروع بأكمله زلة إستراتيجية، فاعتقال أو قتل قيادة تنظيم القاعدة، كما بدا لي، كان ينبغي أن يكون مسألة عمل مباحث وفخاخ استخبارات، وليس بغارات منتصف الليل على البيوت الآمنة، وليس بإسقاط القنابل الكبيرة وطرد حركة طالبان التي في أحسن الأحوال كانت فقط المضيف لتنظيم القاعدة، تشارك في التآمر كما لو كانت مدير الفندق الذي قد يكون متورطًا في مؤامرات مختلف الضيوف. وفي وقت لاحق بعد مدة طويلة، وفي عام 2009م، وفي أثناء عملي محققًا في قضايا جوانتانامو وتحليل اعتقالات قادة القاعدة، توصلت إلى معرفة أن الكثير من النشطاء الذين شاركوا في هجمات 11 سبتمبر/ أيلول لم يكونوا موجودين في أفغانستان، عندما بدأت الحرب. هرب معظمهم من البلاد قبل أن تسقط القنابل الأولى، وكلهم تقريبًا من أولئك الذين قُبِض عليهم في نهاية المطاف – مثل خالد شيخ محمد واتصالاته مع الخاطفين ورمزي بن الشيبة – الذين لم يصطادوا إلا بعد أشهر من العمل الاستخباري الثانوي بناء على مصادر وأصول محلية في باكستان واليمن، والإمارات العربية المتحدة، وتايلاند.

وباعتراف الجميع، كان التهديد بالحرب هو الذي أدى إلى فرارهم، وأصبح (الحرمان من الملاذ الآمن) هو الهدف الإستراتيجي الرئيس لعمليات مكافحة الإرهاب الأمريكية، على سبيل المثال، حيث تكرر هذا في **الإستراتيجية الوطنية لمكافحة الإرهاب** عام 2003م بوصفها هدفًا أساسيًّا لسياسة الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب. ولكن هذه الإستراتيجية لم تنجح قط على أرض الواقع. وبعد عشر سنوات على هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، كان تنظيم القاعدة لا يزال يتمتع بالملاذ على كل جانبي الحدود الأفغانية الباكستانية وأجزاء من اليمن والصومال. طرق أخرى أنتجت على ما

يبدو نتائج أفضل، فالاختراق، وتجنيد أعضاء، وإفشال العمليات المناهضة لمكافحة التجسس، لكن هذه الطرق نادرًا ما لقيت القدر نفسه من الاهتمام.

كيف يمكن لهذا المفهوم – حرمان العدو من الملاذ الآمن – أن يفشل هكذا تمامًا بوصفه هدفًا إستراتيجيًّا، ومع ذلك يدوم مدة طويلة؟ ربما بساطته هي التي عززت شعبيته، فالحرمان من الملاذ يعني شيئًا بسيطًا: السيطرة على إقليم معين لإظهار القدرة على القيام بالعنف ضد الأعداء فيه، فشيء من هذا القبيل أنجزته السلطات الفرنسية (مع الكثير من الوحشية) في الجزائر في الخمسينيات من القرن الماضي، **ويمكننا أن نحصل عليك عندما تكون في هذه المنطقة. نحن نسيطر على مقاليد السلطة هنا، ونحن يمكننا أن نمارس عليك العنف.** ومع ذلك، فإن ضعف هذا النهج واضح: مع أنه قد يكون فعالًا بمعنى وقائي، إلا أن الحرمان من الملاذ يفعل القليل لتغيير النيات والخصائص الأساسية للعدو، وعلاوة على ذلك، ولزيادة تعقيد الأمور، فإن السيطرة على الأراضي لغرض ممارسة العنف ضد الأعداء يحمل معه التزامات أخرى كذلك، وهي جزء من مسؤوليات الحكم، وبمرور الزمن تعلم المسؤولون الأمريكيون أن إنكار الملاذ استلزم برامج لتعزيز الحكم، وتطوير البنية التحتية والنشاط الاقتصادي، واتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية الناس العاديين الآمنين، وليس فقط إطلاق النار على أعداء مزعومين، ولكن إلقاء القبض عليهم، والتحقق منهم، والإفراج عن الأبرياء، وتبديد المخاوف السياسية. وعام 2001م، قدّرت قلة من المسؤولين الأمريكيين أن الجيش لم يكن مجهزًا تجهيزًا جيدًا لمثل هذا العمل.

وفي نوفمبر/ تشرين الثاني 2001م، سقطت بلخ ومزار شريف لميليشيات الأوزبك والهزارة الغازية، وهربت قوات طالبان المفككة جنوبًا، وقبضت الميليشيات المضادة لطالبان على المتطرفين، حيث نقلوهم في شاحنات وحاويات الشحن إلى الصحراء قرب بلخ، كما فعلت القوى نفسها خلال انتصارها المؤقت على طالبان عام 1997م، وبعض السجناء، بما في ذلك (عضو طالبان الأمريكي) جون ووكر ليند، احتجزوا في

قلعة جانغي المجاورة؛ لاستجوابه، وهناك حدث تمرد في المعتقل لم يدم طويلًا في الأيام الأخيرة من عام 2001م، وكان أول ضحية من وكالة المخابرات المركزية في حرب أفغانستان، مايك سبان، الذي كان يستجوب ليند في الساعات التي سبقت وفاته، ولكن سجناء آخرين من طالبان لم يصلوا حتى إلى قلعة جانغي، فقد اختنقوا أو ماتوا من الحرارة في أثناء الرحلة، ودُفنوا في مقابر جماعية خارج المدينة.

وقد زرت بلخ مرة أخرى بعد بضعة أشهر، في يونيه/ حزيران 2002م، ومررت بالجدران القديمة لقلعة جانغي مرة أخرى، في ذلك الوقت كانت قد أُفرغت من السجناء الذين إما أُطلق سراحهم أو أرسلوا إلى قندهار، وبعضهم إلى خليج غوانتانامو، وبدا أن القلعة القديمة كانت بعيدة عن المعركة، وظلت جدرانها العالية الطويلة متماسكة، وبدت دائمة الشباب، فلم ينل منها الزمن، وفي الشمال، أطلقت هزيمة طالبان البشتون العنان لقدر كبير من العنف العرقي، وكانت الميليشيات المحلية تحاول إبعاد المدنيين البشتون من الشمال، وكثير منهم عائلات عاشت في المنطقة منذ أجيال. (البشتون هم أكبر مجموعة عرقية في أفغانستان، لكنهم يشكلون أقلية في المناطق المحيطة ببلخ) وفي تقرير إبريل/ نيسان 2002م بعنوان (دفع ثمن جرائم طالبان)، وثقت هيومان رايتس ووتش كيف أنه في أعقاب سقوط طالبان، نهبت الميليشيات الطاجيكية، والأوزبكية، والهزارة القوية الناشئة في الشمال المدن ذات الأقلية البشتونية، ومسلحون ينهبون البيوت، ويرمون الرجال بالرصاص، ويغتصبون النساء والفتيات والفتيان[25]، وكانت تلك حلقات عنف أخرى على السهوب الآسيوية وفي القرى التي هوجمت بالطريقة نفسها ربما قبل ألفين أو ثلاثة آلاف سنة.

بكل تأكيد أن العائلات البشتون لم تأسف لغياب طالبان، التي جعلت حياتهم بائسة بطرق أخرى، فدب في قلوبهم الرعب من الثمن الذي سيدفعونه الآن لقاء جرائم الحركة، وهذه الأسر كانت قادرة على توثيق خسائرها بدقة على يد طالبان، ليس فقط أقاربهم الذين قتلوا إنما أيضًا خسائرهم من الثروة الحيوانية والأشياء الثمينة. «لقد

قتلوا اثنين من إخوتي وابن عمي، وأخذوا ستة رؤوس من الماعز، وبقرة واحدة، وراديو، وبعض العملات الذهبية، وسلسالًا، وقلادة» – شيء من هذا القبيل. وفي بعض المدن، المسلحون أحرقوا حتى المنازل، وسحبوا إطارات الأبواب الخشبية وإطارات النوافذ، وحدثت عمليات اغتصاب أيضًا – ثمنًا لجرائم البشتون الطالبان البشعة ضد المدنيين الهزارة في السنوات 1997–2000م. أقدم سمات الحرب في وسط وجبهة صراع القرن الواحد والعشرين.

وفي وصف خاص مفجع يفطر القلب، رجل دين بشتون في بلخ يدعى جمال الدين، أجرى زملائي لقاء معه، روى كيف أن جنود الهزارة المناهضين لطالبان، مع نشوة النصر في الآونة الأخيرة، داهموا منزله: «ضربوني على رأسي وعلى الساقين، ثم أوثقوا فمي، لذلك لم أستطع الكلام، وكانوا يسيئون لنا، وذلك باستخدام كلمات بذيئة، تتهمنا نحن البشتون، وتشكل إهانة لنا... ضربوني بالبنادق، وقيدوا يدي»[26]. المسلحون الهزارة اغتصبوا زوجته وبناته الثلاث في غرفة أخرى. قال جمال الدين: إنه في وقت لاحق كان يسمع صراخ زوجته الشابة، ووصف كيف اغتصبت وابنته البالغة من العمر أربع عشرة سنة:

«أخذوا كل النساء والفتيات إلى غرفة أخرى، وبدؤوا مع ابنتي بنت الأربع عشرة سنة التي كانت تبكي كثيرًا، وتتوسل لهم بعدم القيام بذلك؛ لأنها عذراء، لكن أحد الرجال هددها ببندقيته وبقتلها إذا لم تخلع ملابسها، وأمرها بنزع الشالوار، وردّ لها الشالوار في نهاية المطاف. لقد تعرضت للاغتصاب ثلاث مرات، فالقائد اغتصبها مرتين، واغتصبها جندي آخر مرة واحدة، وتناوب الجنود بالدور على زوجة جمال الدين أيضًا، ثم حاولوا اغتصاب بنت الاثنتي عشرة سنة والبنت الصغرى عشر سنوات قبل أن تتمكن زوجته من وقفهم، فعندما حاولوا اغتصاب ابنتي الصغرى قالت لهم: إنها تفضل القتل على الاغتصاب». زوجة جمال الدين أعربت عن الشعور الأفغاني التقليدي بتدمير مستقبل الأسرة: «لا أحد يتزوج بناتي، فلم يبقَ شيء بالنسبة إلينا، لا الزواج ولا الشرف».

كانت زوجة جمال الدين بروايتها شديدة الصراحة على غير المألوف، فقد ناضلنا في أفغانستان لتوثيق الانتهاكات الجنسية التي ارتكبها أمراء الحرب الأفغانية، فالضحايا غالبًا ما رفضن ببساطة وصف تجاربهن لنا، حتى لزميلاتي الأفغانيات. فالعائلات التي تعرضت للهجوم كانت تقيم حاجز صمت حول محنتها، وتقاوم الاستفسارات بشراسة مثلما حاولت مقاومة الاعتداء الجسدي، وكان الأمر وكأن عملية تعرضهن للاعتداء والنهب والاغتصاب قد أحيت آليات التكيف القديمة؛ وعادات يمكن تتبعها إلى أصول بلخ بوصفها واحدة من أولى المدن المسورة في العالم.

وفي منتصف نوفمبر/ تشرين الثاني 2001م، وفي خضم العملية الأمريكية في أفغانستان، اتصل مراسل لهيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي هاتفيًّا مع زعيم طالبان الهارب الملا عمر. كانت المقابلة مثيرة للاهتمام، حيث بدا الملا عمر في حالة استرخاء، بل حتى في حالة عدم اكتراث. سأله مراسل البي بي سي: «هل لك أن تخبرنا أي المحافظات الآن تحت سيطرتك» أجاب الملا عمر: «لدينا أربع، خمس محافظات. ولكن ليس المهم عدد المحافظات تحت سيطرتنا، فذات يوم لم يكن لدينا محافظة واحدة، ثم جاء الوقت الذي كان لدينا جميع المحافظات، التي فقدناها في أسبوع، ومن ثم، فإن أعداد المحافظات ليس مهمًّا»[27].

في ذلك الوقت، أضفت هذه الكلمات المجنونة شيئًا من الفكاهة المثيرة للشفقة على هزيمة طالبان، فكنا نعتقد أن طالبان لن تتعافى أبدًا، ولن تكون قادرة على العمل بوصفها حركة تمرد، حتى في قندهار، ولكن مع ذلك تبيّن في وقت لاحق كيف أن كلمات الملا عمر ليست مجنونة. فتقارير الأمم المتحدة أظهرت عام 2005م سيطرة طالبان على مستوى منطقة الجنوب على أكثر من 50 في المئة في بعض المحافظات في الجنوب – مستويات كان لا يمكن تصورها في أواخر عام 2001م. علاوة على ذلك، فإنه لم يعد ممكنًا بالنسبة إلى الأجانب غير المسلحين السفر إلى هناك[28]. بحلول عام 2007م، شنت طالبان هجمات ليست فقط في الجنوب بل على الطرق الشمالية حول مزار شريف،

وبحلول عام 2010م، سيطرت على مساحات كاملة من جنوب أفغانستان، وكان مقاتلوها ينفذون عمليات في المدن الشمالية[29]، فالارتداد الذي يتفق تمامًا مع كلمات الملا عمر عام 2001م – أعاد إلى الأذهان قولًا مأثورًا كان يتردد بين المجاهدين في التصدي للقوات الروسية في الثمانينيات من القرن الماضي: «قد يكون لديكم كل الساعات، لكن لدينا كل الوقت».

يمكن لهذه المواقف إسقاط إمبراطوريات، فالجدران في بلخ تذكرنا بهذا النوع من الثبات، والآثار القديمة في أماكن أخرى، في أثينا وروما والقدس، أو أكساكا، وولان، تبدو مثل الأعجوبة في العالم الحديث، فعظمة عتيقة من المجتمعات القديمة، تشير إلى أمجاد مختلف الإمبراطوريات التي سادت، ثم بادت منذ زمن بعيد، ولكن الأسوار حول بلخ مختلفة: إنها تقف في تحدٍّ لكل من الوقت وزحف الإمبراطوريات، ويبدو أنها شاهدة على أهميتها الحالية، فالجدران حول بلخ يبدو أنها تقول، نيابة عن الأفغان: لقد اُقتُحمنا ألف مرة، وعبر الغزاة أرضنا، وسرق شعبنا واغتصب، **لكننا ما زلنا هنا.**

تحدي أنقاض بلخ ليس انتصارًا، فإنه مجرد أنقاض موجودة ببساطة هناك، بجانب كل ما يحيط بها من حماقات، فالجدران نفسها حماقة، والجدران القديمة لبلخ تثير المرونة، ولكنها أيضًا تشير إلى الفشل في التوصل إلى تفاهم مع مرونة العنف بوصفه ظاهرة إنسانية، ولكبح الفكر عن نتائجه المخيفة.

موضوع القمع النفسي هذا يعيد إلى الأذهان رواية (جيه دبليو جي سيبالد) WG Sebald j **لأوسترليتز**، قصة مؤثرة عن أستاذ منعزل، بعد أن نشأ في حاضنة للأطفال في إنجلترا، يناضل من أجل إزالة الحواجز العقلية التي تحجب تذكره لطفولته المبكرة في ظل السيطرة النازية على تشيكوسلوفاكيا[30]، فالموضوع الأساسي للرواية هو عدم جدوى التحصينات العسكرية، كناية عن جهود اللاوعي الخاصة التي تشكل لدى أوسترليتز حاجزًا أمام ذكرياته في مرحلة الطفولة قبل أن يصبح يتيمًا بسبب النازية.

(اسم أوسترليتز بالذات يستدعي تذكر ليس حصار قلعة، ولكنه يشير إلى، معركة ديناميكية متحركة فاز بها جيش نابليون في مونروفيا عام 1805م) عند نقطة واحدة في الرواية أوسترليتز يناقش تاريخًا طويلًا من الجدران والقلاع المحصنة في بلجيكا، من بنائها إلى تدميرها، من حصار أنتويرب عام 1585م إلى احتلال هتلر قلعة Eben–Emael عام 1940م، الجهود البلجيكية العنيدة بذلت أكثر من 350 عامًا لإعادة بناء التحصينات للدفاع ضد الغزو، التي اضطلعت بها حربًا بعد حرب، قرونًا عدة، ومرارًا وتكرارًا أثبتت عقمها، إعادة بناء سيزيفية، مثلما كل مجموعة جديدة من الحصون تُقتحَم، أو تتحول إلى حطام وخراب باستخدام أسلحة قوية على نحو متزايد من غزو الجيوش الفرنسية أو الألمانية. أوسترليتز يصنف الأسلحة: المتفجرات، والمهاجمة بالمدفعية، والهاون، ويصف التاريخ كله من حروب الحصار الأوروبية، منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين، وكفاح المهندسين إلى الكمال في بناء التحصينات المعقدة ودائمة التعقيد المتزايد لتحمل المدفعية، والملوك والجنرالات مقتنعون بأن التغلب على مدفعية الأعداء ليس مسألة ساحة معركة دينامية، أو إستراتيجية، أو هجومًا مضادًّا، ولكنها ببساطة مسألة الهندسة الدفاعية، ويصف أوسترليتز الهاجس:

لا أحد اليوم لديه أدنى فكرة عن كمية لا حدود لها من الكتابات النظرية عن بناء التحصينات، من طبيعة الحسابات الهندسية وحساب المثلثات، والحسابات اللوجستية التي سجلوها، والتجاوزات المبالغ فيها للمفردات المهنية لصناعة التحصينات، أنه لا أحد حتى الآن يفهم أبسط مصطلحاتها (الستارة، **والمخابئ، والحيطان الزائفة، والمنزلقات**)[31]. فمن الجدير بالذكر أن جدران قلعة جانغي، وإعادة بنائها في القرن التاسع عشر، أقيمت بالفعل على نمط نجمة جغرافية معقدة، كما كانت الموضة في القرون الماضية، وهو التصميم الذي دون شك كان عديم الفائدة لطالبان في الدفاع ضد الهجمات الجوية للولايات المتحدة عام 2001م.

رواية سيبالد كُتبت في أواخر التسعينيات من القرن الماضي، وقد استشرفت مرحلة ما بعد 11 سبتمبر/ أيلول، والموضوعات التي تطرقها: تدمير المباني والجهود الفاعلة لتوفير الأمن عن طريق بناء الحواجز. (مجمعات التحصينات هذه)، كما يكتب، «تبين لنا كيف، على عكس الطيور، على سبيل المثال، التي تحافظ على بناء العش نفسه على مدى آلاف السنين، فإننا نميل إلى المضي قدمًا في مشروعاتنا أبعد من أي حدود معقولة»[32]، ويقارن الراحة التي يمكننا أن نحسها في تكوينات أصغر، مثل الأكواخ، أو الخلوات، أو (بيت الأطفال في الحديقة)، التي تقدم (على الأقل نوعًا من السلام) مقارنة بالصعوبات التي نواجهها للشعور بالراحة في مبانٍ كبيرة، مثل وزارة الدفاع أو مركز التجارة العالمي:

«في معظم ما نحدق به بدهشة، هو نوع من الدهشة الذي يكون في حد ذاته شكلًا من أشكال بزوغ فجر الرعب؛ لأننا نعرف بالفطرة أن المقاسات المبالغ في حجمها للمباني تلقي بظلال دمارها أمامها من قبل تشييدها، ومصممة من البداية بعين تراها على شكل وجودها في وقت لاحق كأنقاض»[33].

توفي سيبالد في ديسمبر/ كانون الأول 2001م، بعد أشهر قليلة من أحداث 11 سبتمبر/ أيلول، فماذا كان سيبالد يعتقد من المكالمات المباشرة التي تلقاها في أعقاب الهجمات لإعادة بناء برجي مركز التجارة العالمي دون الدخول في الاعتبارات المستحقة من الأحداث التي دمرتهما؟ لأسباب قانونية وسياسية، مرت سنوات عدة قبل البناء، وفي ربيع عام 2007م، وبينما كنت أسير في مانهاتن ليس بعيدًا عن الموقع، لاحظت عنوانًا في صحيفة ساخرة يقول[34]: «القاعدة أيضًا ضاقت ذرعًا بالتأخير في إعادة بناء مركز التجارة العالمي».

عندما تم الانتهاء من بناء البرج الأول لمركز التجارة العالمي عام 2014م، ناضل ناقد فن العمارة في صحيفة **نيويورك تايمز** مايكل كملمان للعثور على أي شيء إيجابي

يكتبه عن تصميم المبنى أو عن منفعته الاجتماعية[35]، فكتب قائلًا: المبنى «الأطول في نصف الكرة الأرضية الغربي»، وكتب في مراجعة دامغة: «كما لو أن ذلك كان يعني أي شيء على الإطلاق».

* * *